

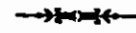


دراسات في الفن

متابعة العلم ليست فناً

على ذكر الفن الرمزي الحديث

الأستاذ عزيز أحمد فهمي



كنا نعرف الفن الرمزي فيما مضى على نوعين : إما أن يكون تجسيدا للمعاني يتدل به الفنان إلى جمهور الأذهان ، وإما أن يكون على العكس من ذلك تلويحا بالبعيد دون القريب يتعالى به الفنان على جمهور الأذهان . ولم يكن هذا لينتزع من الفن الرمزي طبع الفن ولا خواصه ، فقد احتفظ بكيانه كاملاً ، فهو سابق وهو حر ، وهو صادق وهو شاعر

واليوم يراد بنا أن نعرف نوعاً ثالثاً من الفن الرمزي هو — فيما يقول أهله — تابع يمشى وراء العلم ، علم النفس ، يشرح نظرياته وقواعده وما يثبت عنده من طباع النفس وأحوال حياتها . فهل يجوز لنا أن نقبل هذا النوع الثالث على أنه فن صحيح ؟

إننا إذا فعلنا ذلك جبراً أننا كثيراً جداً من الأعمال العقلية على المطالبة بالارتقاء إلى مستوى الفن ، وقد يجربنا هذا إلى نوع من البلشفية الروحية التي تسوى ما بين الحق والزيغ ؛ فتصبح ألفية ابن مالك فناً شعرياً لأنها نظم يشرح النحو ، كما أصبح الخشب في هذه الأيام حريراً ، وكما خرج السمن في هذه الأيام من زيت جوز الهند .

وكي ندفع عن رأينا هذا ، فإنه يلزمنا أن نتعرف في الفن بعض النواحي التي لو فقدناها لفقد طبيعته ، فأصبح شيئاً آخر قد يكون حلواً لذيذاً ، ولكنه لن يكون بحال من الأحوال فناً صحيحاً . فإما هذه النواحي التي يتحتم على الفن أن يستوفيه كي يكون فناً صحيحاً ؟

أولها من غير شك هذا الحس الصادق الذي تبثه الحياة نفسها . وهذا الحس هو الذي يملأ نفس الفنان حتى يغممها ، ثم يفيض منها فناً يتلقاه الناس فيشعرون أنه ينبع من نفس صاحبه رغم أنه لأنه لم يكن يملك من يكتمه بعد أن ازدحم في نفسه وكثف . والفنان الحق لا يبحث عن الأحاسيس ولا يتكلفها ، وإنما هو منطلق في الحياة كما ينطلق بقية الناس ، أو كما تنطلق بقية المخلوقات لا يعترم أن ينتج فناً ، ولا بهياً لذلك ، ولا يتعلم من الناس طريقة التعبير عن نفسه .

ومع هذا الحس الصادق سبقت يطير بالفنان إلى حقائق الكون على جناحين من هذا الحس نفسه . فالفنان الحق لا يمكنه أن ينتظر حتى يقول له العلم إنه ثبتت لديه حقيقة من الحقائق على وجه من الوجوه ، وإنه يأذن له على أساس هذا الثبوت أن يتخذ من هذه الحقيقة مادة لفنه . هو لا يمكنه أن ينتظر حتى يحدث هذا وإنما هو يصل من تلقاء نفسه إلى هذه الحقائق فيعملها والعلم لا يزال يحب في الطريق إليها متثاقلاً متلكئاً ؛ وقد يصيب الفنان هذه الحقائق ، وقد يخطئها ، ولكنه على أي حال يصل إلى شيء ما ، — بعيد عنها أو قريب منها — على أنه هو نفسه لا يمينه من هذا كله إلا أن ينطلق ، وأن ينطلق فقط .

ومع هذا الحس ، ومع هذا السبق به ، فإنه لا بد للفنان أن يدفعه إلى إنتاجه الفني دافع نفساني من المواقف التي ينفضها في فنه

رضى أو سخطاً أو غير ذلك ، وإلا كان الفن بارداً برودة الموت ، لأنه خلا من العاطفة وهي روحه وباعثة الحياة فيه .

ومع هذا وذاك فلا بد أن يكون الفن حراً لا يرضى لنفسه أن خضع في الأغلال والقيود ، ولا يقبل أن يتحكم فيه شيء ، وإن رضخ له كل ما ينتجه العقل البشرى من علم وصناعة .

هذه « أوليات » لا يمكن أن يكون الفن فتاً بدونها . فهل تتوفر هذه « الأوليات » في هذا النوع الثالث من الفن الرسمى الذى يطالعنا به هذا العصر الحديث ؟

أما الحس الصادق فهارب من أهل هذا الفن ، وليس هو وحده الذى هرب منهم وفر ، وإنما تسلل من نفوسهم معه كل حس فلم يمودوا يحسون إحساساً صادقاً ولا إحساساً كاذباً . وليس هذا لأن الله خلقهم هكذا « مبرشرين » بل لأنهم هم أنفسهم أرادوا أن يكونوا هكذا . فلم يقبلوا أن يكون في الناس من يزيد عليهم علماً ، ولا من يزيد عليهم اطلاعاً ، ولا من يزيد عليهم إلاماً بما يكتب وبما في الكتب ، ولا من يزيد عليهم إحاطة بما يحدث في هذه الدنيا من اختراعات واكتشافات ونظريات ومعلومات ، فأدمنوا القراءة ، وأدمنوا التعلم ، وأدمنوا الاطلاع ، وهذا كله يشغل العقل ويجهد ، ويأخذ بالمران على سلوك نهج الناس في التفكير . والذى لا شك فيه هو أن هذا العصر الحديث قد اختط لنفسه نهجاً خاصاً في التفكير ربما تكون الإنسانية قد اسطغته في يوم ما ، ولكنها على أى حال لم تقطع فيه شوطاً بعيداً كهذا الذى قطعته فيه هذه الأيام ، ذلك هو طريق المادة ، فالإنسانية اليوم تحشد مواهبها جميعاً في هذه الطريق ، والقوى القادر هو من تقدم إلى الطليمة بقلع الثمر الذى يثمره الشيطان أمام هذا القطيع البشرى ، والضعيف الهزيل هو من تأخر إلى آخر الموكب بقلع القشور والنوى

والفنان الذى يصطنع هذا اللون من التفكير يقوى واحدة من ناحيته الإنسانيتين على حساب الأخرى إذ ينصر عقله على إحساسه ، وهو لا يقوى هذه الناحية في طريقها الفطرى الذى ترضاه الطبيعة والذى تطالب به برهاناً على جدارة الإنسانية بنعمة العقل الذى لا يؤذى النفس ولا يؤذى الغير ، ولكنه يقويها وهي جامعة

في طريق خاطئ كله رذيلة وكله شر . ومهما ادعى الفنان المشغوف بالعلم اللاهث من الجرى وراءه أن في استطاعته الاعتصام بنفسه عن نزوات العقل والعلم والحضارة الحديثة ، فإنه إما تخاذع في هذه الدعوى وإما مخدوع ، لأن طابع العقل والعلم والحضارة في هذا العصر هو طابع المادة ، فالعقل لا يفر من الحقائق إلا ما ثبت ثبوتاً مادياً ، وأول ما ينكره إذن هو الحس والروح . والعلم لم يمد الناس بطلبونه ليجدوا فيه المتعة الروحية أو ليصلوا عن سبيله إلى ما هو أكبر وأغنى وأنفس من هذه الحياة ... وأما الحضارة فها هي ذى :

عمارات ، وطيارات ، وبوارج ، وغازات سامة وكفى هذا القرن العشرين سبة أنه عند ما قال له فرويد : « إن الإنسانية تحركتها في حياتها قوة الغريزة الجنسية » اطمأن إلى هذا اطمئناناً ثبت في النفوس وتاصل وتفرع وتسقلت منه أغصان سامة هاضرة التفت حول كل شيء حتى أعناق الفنون تريد أن تدقها لتتفرد البهيمية في نفوس الناس على أساس من العلم وليجيء يوم تنضم فيه مستشفيات المجاذيب وحدها على الدين يؤمنون بالحس والروح ، وليجيء بعده يوم تبرا فيه الإنسانية من الحس والروح ويكون أصرها إلى الغريزة الجنسية أولاً وأخيراً

ويا له من يوم ... يوم يقول فيه الناس : عاش على هذه الأرض فيما سبق مجنون كان يدعى غاندى وقد كان تلميذاً للمجانين من أساتذته السابقين !

فهل يرضى الفن عن هذا وهو المسك من روح الله في نفوس الفنانين ... ؟

لا ! إنهم سيثورون على هذا العقل وعلى هذا العلم وعلى هذه الحضارة ، وسترى الإنسانية من قريب يوماً يكون الهداة فيه كتاباً ، ورسمين ، وموسيقيين ، وممثلين ، وشعراء ، ومغنيين وسيصرخ هؤلاء في وجوه الذين يدحرجون الإنسانية إلى الهاوية ليبيعوا لها الحديد والنار للقتال ، وليبيعوا لها الخبز والماء لإمسك الرمن من أجل القتال وحده . وستكون أهون صرخاتهم كتلك التى صاح بها شارلى شابلى في وجه « العصر الحديث » بقصته الأخيرة ...

ولعل العالم لما بنس قصة « كل شيء هادئ في الميدان الغربى »

لم يكن العلم يوماً من الأيام هادياً للفن ، وإنما استطاع في كثير من الأحوال أن يهدى الصناعة والتجارة
فإذا كان أتباع العلم هؤلاء فنانين حقاً فلماذا لا ينشرون
إحساسهم على العالم فيحيطون به ثم يطالعوننا بما ينطبع في حسهم
وهم يرون العالم على ما هو عليه ، وهم يرفقون ما هو عليه ؟
لم يكن العلم يوماً من الأيام هادياً للفن ، وإنما كان الفن على
مر الزمان سباقاً

وإني أريد الآن أن أتصور واحداً من هؤلاء الذين يتبعون
العلم في فهم وهو يريد أن يضع قصة مثلاً ، كيف يضعها ؟ إنه
يقرأ في كتاب من كتب علم النفس أن الدائكة تنيب عن الإنسان
أحياناً فيقتلها العقل الباطن ، ويعيش الإنسان مدة طويلة
أو قصيرة وهو بغير ذاكرة فتصدر منه أقوال وأفعال لا تستقيم
مع حياته الظاهرة . وقد يحدث بعد ذلك حادث يعيده إلى ذاكرته
أو يعيد إليه ذاكرته ، أو قد لا يحدث له هذا الحادث عفواً ،
فهو إذن محتاج إلى التنويم المغناطيسي يرد إليه ذاكرته

يقرأ الكاتب المثقف هذا فيقول في نفسه : والله إن هذا
الموضوع يصلح قصة ؛ فلأركبها إذن من رجل وزوجته فتغيب
عنه ذاكرته فتشقى هي لهذا ، وأخيراً يسعدان بشغافه ، ثم يعود
فيقول لنفسه : وما هي الحوادث التي سأوقع بهذا الرجل فيها ،
على أن تكون حوادث مسلية لذيذة ، وعلى أن تكون في الوقت
نفسه غامضة حتى يثبت للقراء أنني من أدباء الرمز الذين يستغلون
فهمهم على عامة الناس ... آه ... فلتكن هذه الحوادث كيت
وكيت وكيت ... وعلى هذا النمط الكيميائي الصناعي يسير صاحب
الفن العلمي في فنه فيؤلف قصته أو يركبها فيقرأها القاري وينفق
فيها وقته وهو لا يشعر مطلقاً بأن الفنان الذي «عمل» هذه القصة
يختلف في كثير أو قليل عن العالم الذي كتب التقرير العلمي صاحب
الفضل الأول في تأليفها .

فهل من طبع الفن أن يشبه طبع العلم ؟ لا ... ليس الفن
هكذا ولا إنشاء القصة هكذا ...

هو جو ابتأس فأخرج البؤساء . سوجو شقي فخلد الشقاء ،

وغيرها من قصص السينما والطبعة التي كشفت السر عن مآسى
الحرب وما بها من جنون العقل ، وما ألهبها من هوس العلم ،
وما غذاها من اختلال الحضارة وجشع المادة . كانت هذه القصة
كما كانت غيرها من القصص الداعية إلى الروح والسلام فناً ،
وكانت حية ، وكانت حارة . وقد خلقتها جميعاً في نفس منشئها
عاطفة واحدة هي الاشتياق من العقل والعلم والحضارة الحديثة ،
لأن الفنان الحق لا يملك أن يقف من العقل والعلم والحضارة
الحديثة إلا موقف المشمر الكاره لا موقف المحب التابع ، أو العبد
الخاضع ، ما دام يرى هذا اللون الأحمر الذي تصطبغ به الحضارة
القائمة على أساسين من العقل والعلم والخالية من الحس والروح
أما القول بأن علم النفس لا يدعو إلى الحرب فلا تصح كراهيته ،
وإنه من الجائر للفنان أن يتابعه وأن يجنى الحق من فضله فهو
قول يلجأ إليه المكتوف المصوب العينين ، ولا يقبل أن يقول به
فنان منطلق لا يشعر بحاجته إلى العلم كي يرى ويسمع لأنه يمينه
— يرى وبأذنه يسمع ... وإلا فعليه أن يطمس عينيه ، وأن يسد أذنيه
وأن يقنع بقراءة الكتب التي تؤله الغريزة الجنسية ، وأن يجري
وراءها .

سيقولون إن أسمى الفنانين هو الذي ينتج فناً إنسانياً عاماً
تذوقه النفوس جميعاً . . . سيقولون إن القواعد التي يقررها علم
النفس قواعد عامة تنطبق على النفوس جميعاً انطباقاً تاماً سليماً ،
وهذا وحده يكفي — عديم — أن يفرى الفنانين بالإقبال عليها
والتعلق بها . وردنا على هذا أن هذه الطريقة التي يصطنعونها
طريقة عقلية تجارية ليس فيها من خير إلا أنها صريحة جداً للفنان
الذي يسلكها إذ يستغنى فيها بكتاب يشتره بدراهم معدودة
— فيقرأ فيتخذ منه مادة الفن ... عن سنوات أو أشهر أو أيام
ينفقها من عمره في هذه الحياة تأكل من أعصابه وتشرب من
دمه لتجود عليه بعد ذلك بمثل ما جادت به على من أخرجوا البؤساء ،
وآلام فرتر ، ومتروبوليس ، وفاوست ، وسائر هذه الجمرات
الخالصة التي التهب جهنمات في نفوس أصحابها لا كتلاً من الثلج
المصنوع من الماء والأحماض والأملاح

لا شيء أكثر من أن يعيش وهو لا يدبر في نفسه أنه سيخرج فناً ... فليترك نفسه للحياة ، وليسع إلى الصدق ما أسكنه السى . وليبحث عن الجمال ما أمكنه البحث . ليقرأ ، ولكن عليه أن يقرأ في صفحات الوجوه قبل أن يقرأ في صفحات الكتب . عليه أن يلتفت إلى الناس وإلى الحيوان وإلى النبات وإلى الجماد . فليعط كل نفسه لكل ما يحيط به من مظاهر الوجود ... فليعاثر هذه الحياة ، وليبادلها الحس ، وليقتبط بكل ما تؤاتيه به من سعادة أو محنة ، وبكل ما يراه في الناس من خير أو شر ، وبكل ما يخاله في الطبيعة من أحسن الصور وأقبحها فهذا وحده هو سبيل الفن ، وليس من الضروري بعد ذلك أن يكون الفن كتابة أو ألحاناً أو صوراً ... وإنما الفن هو حياة الهدى ... وكم في جماهير الناس من ثقافة فنانين ، وكم في الفنانين من مرتزقة أو - على الأقل - حائدين !

عبد الله محمد فهمي

وعرض منه صوراً لا يقول أحد إنه رآها جميعاً ، أو أن كتاباً دله إليها ، ولكنه هو أحسها لأن روحه طافت بها . روحه كانت تغادره وتحل في البؤساء على اختلاف ألوان بؤسهم فتدوق للبؤس طعوماً مختلفة ليس أفساها بؤس « جان فلجان » اللص الذي مرق رغيف الخبز ، وإنما قد يكون أفساها بؤس « جافير » رجل البوليس الذي كان يتنطح في مخاصمة « جان فلجان » وتبعه وإحراجة لأنه لم يقمته ولكن لأنه كان يخشى أن يقصر في واجبه ، فيكون في نظر القانون مجرمًا وهو ما لم يكن يجب أن يتردى إليه بعد أن أحسن المجتمع تنشئته وقد كان لقيطاً رباه المجتمع ليكون حاميًا من حماه

ما أعجب هذه النفس التي عرضها هوجو في بؤسائه . نفس أصابها المقد - على حد تعبير العلماء - فأصبحت تتحجر دون الرحمة لأنها كانت تخشى ألا يرحمها أحد ، كما لم يرحمها أب ولا أم . وهذه نفس قد يحللها فرويد ، وقد يحللها سبيرمان أو غيرها من علماء

النفس ولكن تحليلهما وتحليل غيرها ليسجد أمام هذا الجلال الذي أسبله عليها هوجو الفنان الذي لم يقرأ علم النفس ولا نظريات علم النفس ، والذي كان يعيش بروحه فيحس ويشعر ، والذي لو لم يكن أديبًا بطبعه لما أنشأها هذا الإنشاء الرائع ، والذي لو كان موسيقيًا لأرسلها لحناً باكياً

الفنون يا أصحاب الفنون يمكن أن يترجم بعضها إلى بعض ، لأنها لا تكون فنوناً إلا إذا كانت من وحى العواطف ، والعواطف لا تستعصى على أي فن . فها هي العواطف التي تتحرك في نفوس الذين يجرون وراء العلم العاقل والتي تصلح للترجمة إلى بقية الفنون؟ لا شيء إلا عواطف مصنوعة مركبة . أما العاطفة الصادقة في نفوسهم فهي لا تتحرك إلا نحو غرض من أغراض الطبع والنشر والإذاعة

لا . ليس هذا فناً

وأخيراً . ما الذي يقبل من الفنان أن يكون

عليه ؟ ...



أما الآن بعد ما نجمع العلم الحديث في كتابنا هذا فسنرى أن الجسم قد تم لنا على الوجه
باسم لؤلؤة تخطيط فنقد ما في قدرتك أن تسبق قوتي شاباك الفقرة
استعمال لهذا المستخرج . إنه لؤلؤة تخطيط فنيل تحت مظلة مسترة من هذا التناصلي
الشهر بمبينة برلين . لكن نقف على هذا السؤال المهم : لماذا لم يطلع كتاب
« الحياة الجديدة » الذي يمكنك الحصول عليه نظيره في النسخة الفرنسية ولا في
المطبعة برسم ذات حمة الزاوية التي للنسخة العربية . أرسل المبلغ طابع بريدي إلى
ج. ل. نهورمين - صندوق بوسنة ٢١٠٥ بمصر
ارفضوا كل عتبة غير مكتوب عليها : تعبئة خاصة للشرق جرة قوية